

العرب في الجاهلية وأن يستوعبوا الكثير من حياة الناقة والفرس والصحراء، ولا أدل على ذلك أيضاً من لمعان أسماء عريية في أوروبا مثل: محمد ديب، رشيد بوجدر، الطاهر بن جلون، وأندري شديد، وأمين معلوف.

لعلنا بعد هذه الومضة التاريخية/الإشهارية نتخلّى عن هذه المخرافة الممجوجة.

أما عن التذرع بمرجع يتخذ مقياساً، فالمسألة فيها نظر، خاصة إذا كانت الأحكام المرسله لا تستند إلى حجّة قوية ودليل قاطع. وليس من العيب أن تكون مصر مرجعاً يقيس عليه الناقد كل إنتاج أدبي يأتي

من خارج الدائرة. وإنما المحير أن يظلّ هذا المرجع مقياساً تسقط دونه كل الأصوات الوافده وبقى هو الوحيد الشامخ الذي لا يطوله أحد. نحن نقرأ ما يصدر في المشرق أو في المغرب ونحاول أن نستفيد من هذا ومن ذلك دون أن نسلح بحقيقة مسبقة تؤكّد لنا أننا الأعلى أو أننا الأدنى.

والقول بأنّ هذا تجاوزناه وعشناه في الخمسينات كمن يقول بأنّ علاقة الرجل بالمرأة موضوع قديم قديم الإنسان، بينما الأمر غير ذلك تماماً بالنسبة إلى الناقد. إذ ينتظر من الناقد أن يحلّل الصورة وبحث في أبعادها وأن ينظر من أية زاوية التقطت وكيف عبّر عنها الكاتب.

تعليق صاحب المجلة

استغرابه؟ حين نسعى إليه لتعرّف على إنتاجه أو لتعرّف قراء البلاد العربية عليه، يستغرب ذلك بحجّة أنّ لغتنا العربية مشتركة؛ فإذا لم نَسع إليه أتهمنا بالقصور، بل بالتعالى!

(٢) كان الكاتب يودّ أن تكون مداخلته حول القصة التونسية في مجلة الآداب ولكن العدد القليل من القصص التونسية المنشورة بالمجلة لا يفي بالحاجة ولا يشجّع على كتابة دراسة جادة في الموضوع؛ فباستثناء ما نُشر في الملف الخاص بالآداب التونسي الحديث، لم تُنشر لأفلام تونسية إلا ثلاث قصص ولعلها نشرت أكثر من هذا العدد، ذلك لأنّ توزيع الآداب بتونس لم يكن دائماً منتظماً... وانتهى إلى القول: «لذلك سأحدث عمّا نُشر بالملف الخاص...»

ونجيب على ذلك بأنّ عدم اطلاع الكاتب على نتاج معيّن يريد أن يدرسه كان يقتضيه منطقياً ألاّ يتصدّى أصلاً للموضوع، لأنّ ذلك تقصير منه، ولاسيما حين نؤكّده أنّ مجموعة الآداب الكاملة متوفرة في أكثر من مكتبة عامة في تونس. ولو فعل لاكتشف أنّ عشرات القصص التونسية منشورة طوال أكثر من أربعين عاماً في المجلة؛ ولرأى أنّ محاولته رسم صورة القصة التونسية في الآداب استناداً إلى ثمانتي قصص في الملف وثلاث قصص أخرى في أعداد أخرى إنما هي محاولة بائسة بعيدة كل البعد عن الروح العلمية والموضوعية!

(٣) يقول الكاتب تعليقاً على نقد الملفت «ولعلّ مناقشة ما جاء في ذلك التقّد غير ذات فائدة

في ندوة «تكريم الآداب» علقت على مداخلة الأستاذ رضوان الكوني تعليقاً سريعاً. ولكّني بعد أن رجعت إلى «ملف الآداب التونسي» الذي استند إليه الكاتب، رأيت أنّ لديّ مزيداً من حجج التنفيذ أدلي به.

أريد أولاً أن أشكر الأستاذ الكوني على ما خصّني به من مديح وثناء، وما ساقه لآداب من تقيظ. ولكّني لم أفهم كيف سرّد بعد ذلك مآخذ على المجلة تكاد تذهب بكثير من فضائلها التي أشار إليها!

(١) يقول الكاتب إنّ «المؤسف حقاً أن تتولّى مجلة عربية التعريف بأدب عربي في بلد عربي آخر...»

لعلّ الكاتب الوحيد، في الوطن العربي، الذي يستغرب أن تخصص الآداب بعض أعدادها أو ملفاتها لإبداع بلد من البلدان العربية. وقد كنّا ولا نزاع نعتقد أنّ هذا خير ما تفعله مجلة أعلنت منذ أعدادها الأولى أنّها تسعى لأن تكون جامعة لثقافة عربية لا تقوم الأنظمة إلا على تفتيتها بنزعة الأقلمة والشردمة. ونحن نعتقد أنّ الآداب قد أدّت دوراً محموداً في كشف مظاهر الإبداع والخلق للقراء العرب لدى كتاب بلد عربي لم يكن من اليسير أن يبلغوهم، ولاسيما أنّ هذه الملفات كانت تتضمن إجمالاً مقالات تقييمية للإنتاج المحلي. وكثيراً ما نسمع من يقول إنّ عرف إنتاج فلان أو فلان من غير كتاب بلده عبر صفحات الآداب، ولولاها لبقى جهل هذا الإنتاج. فكيف يكون هذا السعي نقيصة ومثاراً للاستغراب؟

إنّ الكاتب ينهي هذا «المأخذ» بقوله: «ولكن المؤكّد أنّ إخواننا لم يسعوا إلينا مثلما نسعى إليهم». ألم يشعر بأنّ هذا الحكم يتناقض مع

خصوصاً بعد أن مرّ على ذلك الملف ونقده أكثر من عشرين سنة».

ولكنّه بعد سطرين فقط يقتحم المناقشة بحجّة أنّ «حضور الآداب التونسي في الآداب أمر مطلوب التطرّف إليه في مثل هذا الاحتفال الذي يُقام لتلمس مدى ما أسهمت به هذه المجلة في تطوير الآداب العربي عموماً».

بعد اثنين وعشرين عاماً، يقول الكاتب، ربّما كانت المناقشة غير ذات فائدة، ومع ذلك فهو يناقش الناقد، ولاسيما أنّ خيبته، بعد الاطلاع على العدد الذي تلا عدد الملف، «كانت أكبر من أن توصف». لماذا؟ هو لا يذكر السبب، ولكن يتبيّن من السياق أنّه كان ينتظر أن يتصدّى الكتاب التونسيون جميعاً للردّ على الناقد: رجاء النقاش وسعيد حورانيّة (رحمه الله). ولما لم يفعلوا ذلك، فستولّى هو هذه المهمة الشاقة بعد اثنين وعشرين عاماً!

وكيف ردّ الأستاذ الكوني؟

كان المفروض أن يرّد فقط على ناقد القصص، مادام موضوعه أصلاً «القصة التونسية في مجلة الآداب». ولكّنه تصدّى أولاً لناقد الشعر، مستعيراً بعض الأحكام التي أطلقها الشاعر التونسي نور الدين صمود على الأستاذ النقاش قائلًا إنّ قد وقف «من أصحاب تلك القصائد موقف الأستاذ من تلاميذه المبتدئين». هذا ما قاله صمود في العدد «الموالي لنشر الملف» (والذي عاد بالخيبة على الأخ الكوني) فأخذ عنه هذا المعنى - دون أن يذكر ذلك! - وسوّعه ليشمل ناقد القصص سعيد حورانيّة. والقارئ الذي يعود إلى هذين الناقدتين يتبيّن بسرعة كيف خلط الكاتب بين آراء الناقدتين دون ما تميّز تقريباً، وحمل كلامهما ما لا يتفق مع قوله إنّ لهجتهما الأستاذية الفوقية «انتهت بهما

تمنيتُ لو سار النقد المشار إليه في طريق آخر أكثر استقامة ونزاهة، لا أن ينظر إلى هذا الأدب على أنه هَشٌّ وأنَّ أصحابه مازالوا في بداية الطريق مع أنهم ينتمون إلى بلد ذي تقاليد ثقافية عريقة، يتقنون الشعر وفنونه والقصة وتقنياتها، وأنَّ تونس شهدت ميلاد أول رواية لها في هذا القرن سنة ١٩٠٦ حينما نشر الأديب صالح السويسي روايته الهيفاء وسراج الليل قبل العديد من الروايات العربية التي أصبح يؤرخ بها تاريخ الرواية. كلُّ هذا لا يؤكد أنَّ ما نُشر بالملف الخاصَّ في الآداب قَمَّةٌ فنيَّةٌ لا يرقى إليها الشكُّ، وقولٌ كهذا مردود على صاحبه ويغلق باب النقاش نهائياً.

وإنما أردتُ أن أصل إلى أنَّ تجربة ذلك الملف كانت سلبية جعلت التونسيين لا يتحمسون إلى النشر خارج بلادهم. ولعلَّ ما قلته عن تونس يصحُّ أيضاً على بعض البلاد العربية.

أجدد أمانتي لـ الآداب حتى تواصل صدورها على هذا النطاق البديع المواكب لكلِّ ما هو جديد وأهني الدكتور سهيل على هذا التتويج العربي الشامل الذي يستحقُّه عن جدارة. وأجدد تحييتي للحاضرين وللأخوة الذين سهروا على تحقيق هذا اللقاء ومكثوني من شرف الحديث إليهم.

تونس

إلى جمع كلِّ ذلك الإنتاج في سلَّة واحدة وقذفها بعيداً بعيداً.

إنَّ المرحوم سعيد حورانيَّة تناول القصص بكثير من الموضوعية، وأثنى، مع الملاحظات الانتقادية، على قصة إبراهيم بن مراد الذي وصفه بأنه «مليء بالوعود، وهو يستطيع أن يخلق الجوّ الملائم؛ ورغم القنلات السريعة فالقصة نسيج محكم، بقي إحكام السيطرة على اللُّغة التي بلغت المجانيبة في بعض الأحكام». ووصف قصة «المقفع» لفاطمة سليم العلاني بأنها «قصيدة جميلة، فيها ما في القصيدة من ترابط وإبهاء وتركيز؛ إنَّها رمزٌ معبرٌ لقضية فلسطين المنكوبة بأهلها وأقربائها وأعدائها في صورة شعبية بسيطة شديدة التأثير». وقال عن قصة حمودة الشريف إنَّ فيها «محاولة واضحة لتفجير الشكل تصل إلى حدِّ السوراليَّة، ولكن المحاولة غير مترابطة». ووصف قصة «أحذية من نار» لتبلة التباينة بأنها «قصة تستوقف النَّظر حقاً، تقف وراءها قصاصة موهوبة متمكِّنة، تسري كالتيار المتدفق حتى النهاية دون تقطُّع أو افتعال، يتساوى فيها الشكل والمضمون في امتزاج عضويٍّ ساحر، وفيها حرارة وصدق، وهي من أفضل قصص المجموعة... في بعض المقاطع إغراق في الغنائية ليس خطيراً ولكنَّه يشوب صفاء الانسياب». وبعد أن تحدَّث عن قصة «رحلة الضياع» لنور الدين بن بلقاسم قال: «لا يمكن الحكم على الكاتب من هذه القصة، فهي تدلُّ على مخيلة خلاقة ولكنَّها في هذه القصة بالذات لم تستخدم الاستخدام المناسب».

حين يتناول ناقداً ما خمس قصص من أصل ثمان يمثل هذه الرُّوح الإيجابية، رغم جميع المآخذ التي يراها، فهل يحقُّ لناقد آخر أن يقول عنه إنَّه يعتقد أنَّها «محاولات يائسة تسيير في طريق

مسدود». . . رغم أنَّ حورانيَّة قال قبل ذلك: «إنَّها علامة باهرة حقاً لهموم القصاصين التونسيين الحديثين، مليئة بالرغبة الصحيَّة في التَّغيير، مستشرقة الطريق الثوري الصحيح: تغيير العالم لخير الإنسان بتحطيم الشكّل الاجتماعي للإنسان للتعريف للطبقة؟» وبعد أن أورد السليبيات في بعض قصص الملف، أضاف: «ولكن هناك وراء ذلك كلِّه محاولة محمومة للتعبير المخلص عن عالم غريب ومعقَّد وغير مألوف، محاولة قد تكبر وتعتزُّ ولكن لا يتقصها الإخلاص العميق».

وإذن، فقد ظلم الأخ الكوني المرحوم سعيد حورانيَّة (الذي غاب عنا منذ أقلَّ من ثلاثة أشهر) ظلماً شديداً، فوجب أن ندافع عنه احتراماً لوفاته وتفنيداً لما أصاب أحكامه، بعد موته، من تشويه.

(٤) ولكن ظلم الكوني لنا، نحن الآداب، أعجب وأغرب!

فهو يزعم أنَّ ما أورده قلم التَّحرير في تقديم هذا الملف ربَّما يكون قد شجَّع الناقدَيْن على قول ما قالاه و«لعلَّ في هذا التَّقديم أمراً بإطلاق النار، أو هكذا فهم الناقدان، فتأبَّطوا معولِّين وشمرًا عن ساعديهما وهجما هجوماً لا هوادة فيه بغية تدمير هذا الشيء الوافد...».

إنَّه يشكُّك في صدق نيَّة الآداب بتقديم ملفِّ تعريفي للأدب التونسي الحديث، بل يكاد يقول إنَّنا نكاد نحرضُ النقاد على تدمير الأدب التونسي!

يكاد يقول ذلك، ناسياً أو متناسياً دور الآداب التي يصفها هو شخصياً بأنَّها أصبحت «جامعة ثقافية تنشر الإبداع والدراسة والقراءة والنقاش»

ومعتبراً الفَّاد آلة طيعة بيد رئيس التحرير يحرضهم فيستجيبون! يكاد يقول ذلك في ندوة لتكريم الآداب. وأنعم به من تكريم!

كلُّ هذا، ومادة الملف أشرف عليها اتِّحاد الكتاب التونسيين نفسه، واختار لها الأقلام التي يرى أنَّها تمثل هذا الأدب. ولئن كانت رئاسة التَّحرير قد أشارت إلى ما قد يكون على تلك المادة من مآخذ، فقد كان طبيعياً أن تعلن أنَّها ترحب بكلِّ نقد. فلماذا لم يبادر الأستاذ الكوني إلى التعلُّق على ذلك الملف عند صدوره منذ ٢٢ سنة، أم أنَّه لم يكن قد وُلد بعد؟

(٥) وأخيراً يقول الكاتب: «إنَّ تجربة ذلك الملف كانت سلبية جعلت التونسيين لا يتحمسون للنشر خارج بلادهم».

كيف ففز الكوني إلى هذه النتيجة؟ هل رصد مثلاً أعداد الآداب، بعد تاريخ الملف، فتبيَّن له أنَّ الأدباء التونسيين قد قاطعوا المجلَّة؟ أرحوه أن يعود إلى المجموعة الكاملة ليتبيَّن أنَّ أدباء تونس لم يغيروا يوماً عن الآداب وأنَّ القراء التونسيين يؤثرون الآداب و«منشورات دار الآداب» على كثير من المجلَّات والدور العربية الأخرى، وأنَّهم بذلك أوفياء لهذه المؤسسة التي تحترمهم وتحبهم ولا تكن لهم إلاَّ التَّقدير وتفتح صدرها لهم على سعته.

وأنا واثق من أنَّهم ليسوا كثيرين أولئك الكتاب التونسيون الذين سيرضون عن «رضوان» في مداخلة بمناسبة «تكريم» الآداب، ولو كان يحاول، بين مقطع ومقطع، أن يداوي بالتَّقريظ والثناء والمجاملة، بعض الجروح التي كان يُحدثها... من غير أن يوفِّق كثيراً!

سهيل إدريس